في التاريخ ...

فكرة ومنهاج

للأستاذ سيد قطب

التاريخ ليس هو الحوادث ، إنما هو تفسير هذه الحوادث ، والاهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها ، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمان والمكان .

ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها ، ويربطها بما قبلها وما تلاها ، ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقوّمات النفس البشرية جميعها : روحية وفكرة وحيوية ، ومقومات الحياة البشرية جميعها : معنوية ومادية . وأن يفتح روحه وفكره وحسه للحادثة ويستجيب لوقوعها في مداركه ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تحرج وتمحيص ونقد .

فأما إذا كان يتلقاها بادىء ذي بدء وهو معطل الروح أوالفكر أوالحس — عن عمد أو غير عمد — فإن هذا التعطيل المتعمد أو غير المتعمد ، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية : أي أنه يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل . ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئاً أو ناقصاً .

هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ؛ ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية — بصفة عامة — لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة ، والحياة الإسلامية على وجه الخصوص . عنصر الروحية الغيبية — وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية ، والطريقة التجريبية على وجه أخص — وكلما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة .

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية على وجه التخصيص لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص في الطبيعة الغربية ، وفيه تكمن معظم أوجه الاختلاف بين الطبيعتين وهي شتى كثيرة .

* * *

هذه المقدمة الصغيرة لا بد منها لبيان ما فى تناول المؤرخين الغربيين للتاريخ الإسلامى من نقص طبيعى فى الإدراك ، ونقص طبيعى فى الفهم ، ونقص طبيعى فى التفسير والتصوير . فانعدام عنصر من عناصر الإستجابة للحادثة أو ضعفه ، لا بد أن يقابله نقص فى القدرة على النظر إلى الحادثة من شتى جوانبها . وضياع عنصر من عناصر التقويم والحكم لا يؤمن معه سلامة هذا الحكم ، أو على الأقل لا يسلم على علاته .

هذا النقص يعد عيباً فى منهج العمل التاريخى ذاته ، وليس مجرد خطأ جزئى فى تفسير حادثة أو تصوير حالة . ومن ثم فالمنهج الأوربى فى البحث بسبب تعطيل أحد عناصر الاستجابة سواء كان ذلك ناشئاً عن الطبيعة الغربية ذاتها وملابسات حياتها البيئية والتاريخية ، أو ناشئاً عن تعمد المؤرخ الأوربى تعطيل هذا العنصر ، استجابة لمنهج معين فى الدراسة . هذا المنهج غير صالح لتناول الحياة الإسلامية بل لتناول الحياة الشرقية على وجه العموم . ولكن عدم الصلاحية يتجلى فى جانب الدراسات الإسلامية أوضح وأقوى .

وثمة سبب للشك فى قيمة الدراسات التاريخية الغربية للحياة الإسلامية .

ذلك أنه لا يخفى أن كل مرئى يختلف شكله باختلاف زاوية الرؤية . وكذلك الشأن فى الأحداث والوقائع . والأوربى بطبيعته ميال إلى اعتبار أوربا هى محور العالم ، فهى نقطة الرصد فى نظره ، ومن هذه الزاوية ينظر إلى الحياة والناس والأحداث . ومن هنا تتخذ فى نظره أشكالا معينة ليس من يملك الجزم بأنها أصح الأشكال . وهو يدركها فى هذه الأوضاع ويفسرها ويحكم عليها كما يراها .

وإذا كان بديهياً أن أوربا لم تكن هى محور العالم فى كل عصور التاريخ ، وكان الأوربى لا يملك اليوم أن يتخلص من وهم وضعها الحاضر حين ينظر إلى الماضى . . . أدركنا مدى انحراف الزاوية التى ينظر بها الأوربى للحياة الإسلامية التاريخية ، ومدى أخطاء الرؤية التى يضطر إليها اضطراراً ، ومدى أخطاء التفسير والحكم الناشئة من هذه الرؤية المعيبة .

ذلك كله على افتراض النزاهة العملية المطلقة ، وانتفاء الأسباب التى تؤثر على هذه النزاهة ، فإذا نحن وضعنا فى الحساب ما لا بد من وضعه ، وما لا يمكن جدياً إغفاله من أسباب ملحة قاهرة عميقة طويلة الأجل ، متجددة البواعث تؤثر فى نظرة الأوربى للاسلام ، وللحياة الإسلامية ، وللعالم الإسلامى . من اختلاف فى العقيدة ، إلى كراهية لهذا الدين وأهله ، إلى ذكريات تاريخية مريرة فى الأندلس وفى بيت المقدس وفى الأستانة

وفى سواها ، إلى صراع سياسى واقتصادى واستعمارى ، إلى نزوات شخصية والتواءات فكرية . . إلى آخر تلك البواعث القديمة المتجددة أبداً . .

إذا نحن وضعنا فى الحساب ذلك كله — ولابد أن نضعه لنضع الأمور فى نصابها — وأضفنا إليه خطأ المنهج وخطأ الرؤية . . أمكن أن نقدر قيمة الدراسات الأوربية فى الحقل الإسلامى — وبخاصة فى التاريخ — قدرها الصحيح ، وأن نتحرز التحرز العلمى الواجب لا من قبول هذه الدراسات على علاتها ، بل من قبول المنهج الذى قامت عليه ، أو محاولة اتباعه فى دراساتنا الإسلامية على وجه خاص .

وإلى هنا نصل إلى منتصف الطريق فى بيان الفكرة التى ندعو إليها ، والمنهج الذى نشير به .

* * *

إن التاريخ الإسلامى يجب أن تعاد كتابته على أسس جديدة وبمنهج آخر . .

إن هذا التاريخ موجود اليوم فى صورتين : صورته فى المصادر العربية القديمة ، وهذه من التجوز الشديد أن تسمى تاريخاً ، بل هى لا يمكن أن تحمل هذا الاسم . فهى نثار من الحوادث والوقائع والحكايات والأحاديث ، والنتف والملح ، والخرافات والأساطير ، والروايات المتضاربة ، والأقوال المتعارضة على كل حال . . وإن كانت بعد ذلك كله غنية كمصدر تاريخى بالمواد الخامة التى تسعف من يريد الدراسة ويوهب الصبر ، ويحاول الغربلة . . بالمواد الأولية اللازمة له فى بناء هيكل التاريخ .

وصورته فى المصادر الأوربية — وبخاصة فى أعمال المستشرقين — وهى الصورة التى تحدثنا من قبل عنها ، وألقينا عليها فى إجمال بعض الأضواء . وهى تعتمد فى جملتها على المصادر العربية القديمة . وهى على ترتيبها وتنسيقها تتسم بتلك السمات التى لا تطمئن الباحث الواعى إليها . وهى فى أحسن صورها دراسة من الظاهر للحياة الإسلامية — إذا صح هذا التعبير — وخير ما فيها هو الجهد فى جمع النصوص وتحريرها وتنسيقها والموازنة بين الروايات المختلفة من ناحية السند الخارجى ، لا من ناحية الإدراك الداخلى ؛ لأن هذا الإدراك هو الذى يحتاج إلى تلك الحاسة الناقصة فى شعور الغربيين تجاه الحياة الإسلامية كما أسلفنا ، فضلا عن الغرض فى كثير من الأحيان والهوى ، مما يخل بنزاهة الموازنة ، فضلا على فقد عنصر التجاوب الكامل مع المؤثرات جميعاً .

هنالك أجزاء لم تتم من صورة ثالثة للتاريخ الإسلامى — لم نشأ أن نعتبرها فى الفقرتين السابقتين ، لأنها — فضلا على كونها أجزاء معدودة — لاتزيد على أن تكون ظلالا باهتة أو كاملة للدراسات الأوربية ، حتى وهى تناقش أحيانا أو تعارض هذه الدراسات . فهى أولا تتبنع المنهج الغربى فى صميمه دون زيادة ، وهى ثانياً تستمد عناصرها من الدراسات الغربية فى الغالب ، وهى ثالثاً متأثرة بالإيحاءات الغربية من ناحية زاوية الرؤية ؛ فهى لاتقف فى المركز الإسلامى لتطل على الحياة الإسلامية ، وإنما تقف فى مركز الحضارة الغربية لتطل منه على تلك الحياة ، لأنها ليست من القوة والإصالة بحيث تجد نفسها فى خضم الثقافات الغربية ، لتفهم الإسلام بعقلية أصيلة وعلى ضوء كذلك أصيل . والعقلية التى تحكم على الحياة الإسلامية ينبغى أن تكون فى صميمها إسلامية مشربة بالروح الإسلامى ، لكى تدرك العناصر الأساسية فى هذه الحياة وتحسها وتتجاوب معها ، فتستكمل كل عناصر التفسير والتقدير .

يجب إذن أن تعاد كتابة التاريخ الإسلامى على أسس جديدة وبمنهج آخر . يجب أن ينظر إلى الحياة الإسلامية من زاوية جديدة ، وتحت أضواء جديدة . لكى تعطى كل أسرارها وإشعاعاتها ، وتنكشف بكل عناصرها ومقوماتها .

فى هذه الدراسة الجديدة يجب أن تكون المصادر العربية هى المرجع الأول ، والدراسات الغربية هى المرجع الثانى . على أن ينتفع من هذا المرجع الأخير ، بتحرير النصوص وتنسيقها ، وببعض الموازنات بين شتى الروايات من جهة السند . ولا شىء بعد ذلك أبدا . فبقية العمل يجب أن تكون ذاتية بحتة ، غير متأثرة إلا بمنطق الحوادث ذاتها ، بعد أن يعيش الباحث بعقله وروحه وحسه فى جو الإسلام كعقيدة وفكرة ونظام . وفى جو الحياة الإسلامية كقطعة من حياة البشرية الواقعية . وهذه الحياة فى هذا الجو ضرورية جدا لتفتح نوافذ إدراكه جميعاً ، لا لفهم تلك الحياة فحسب ، بل لإدراكها ككائن حى ، وإدراك مواقع الحوادث والوقائع فى جسم هذا الكائن الحى .

وإنه ليعز على الباحث فى أية فترة من حياة الإنسانية أن يدركها إدراكا حقيقيا داخليا ، إلا أن يتجاوب معها بكل ذاتيته ، وأن يعيش فى جوها بكامل مؤثراتها وإيحاءاتها ، فليست هذه خصيصة قاصرة على الحياة الإسلامية ، وإن كانت أكثر وضوحا بالقياس إلى الحياة الإسلامية ، لأن مقومات هذه الحياة تختلف فى كثير من أنواعها وماهياتها عن مقومات الفترة الحاضرة وبخاصة فى العالم الأوربى .

وإنه ليصعب أن نتصور إمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية ، ولطبيعة فكرة الإسلام عن الكون والحياة والإنسان ، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة ، وطريقته فى الاستجابة للحياة كلها فى ظل تلك العقيدة ؛ وهذه الخصائص كلها لا يمكن أن تطلب عند باحث غير عربى بوجه عام ، ولا عند غير مسلم على وجه التخصيص ، وهى الخصائص التى لا بد من توافرها عند إعادة كتابة التاريخ الإسلامى .

إنه لابد من إدراك البواعث الحقيقة لتصرفات الناس فى خلال هذه الحياة التاريخية الإسلامية وعلاقة هذه البواعث بالحوادث ، والتطورات ، والانقلابات . ولابد من ربط هذا كله بطبيعة الفكرة الإسلامية وما فيها من روح انقلابية ثورية — لا فى شكلها الخارجى وخطواتها العملية فحسب — ولكن فى تفسيرها للعلاقات الكونية ، والعلاقات الإنسانية ، والعلاقات الاجتماعية . وفى تصورها لنظام الحكم وسياسة المال وطرق التشريع ، ووسائل التنفيذ . الخ . وهى كلها من مقومات الحياة وبالتالى من مقومات التأريخ لهذه الحياة .

إن المعارك الحربية ، والمعاهدات السياسية ، والاحتكاكات الدولية . . وما إليها مما يعنى به التاريخ غالباً ، أكثر من سواه . إنها كلها محكومة بعوامل أخرى هى التى يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ . . هذه العوامل التى يختلف الباحثون فى إدراكها وتقديرها : كل يخضع للفلسفة التى تسيطر على تفكيره وتقديره ، أى لطريقة إدراكه للحياة فى عمومها . وللباحث المسلم مزية هنا فى دراسة الحياة الإسلامية ؛ لأن طريقة إدراكه للحياة تمت بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة فى سير التاريخ . ومن ثم فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة صحيحة .

وعلى ضوء إدراكه لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها يستطيع أن يزن دوافع الحياة الإسلامية فى تلك الفترة التاريخية والقيم الإنسانية الكامنة فيها ، وأسباب النصر والهزيمة فى كل خطوة . وأن يتصور الحياة الظاهرة والباطنة لتلك الجماعات الإنسانية فى مهد الإسلام الأول وفى البلاد التى انساح فيها . فيضم إلى الجوانب الظاهرة التى لا يدرك الغربيون سواها فى الغالب كل الجوانب الروحية الخفية التى يعدها الإسلام واقعاً من الواقع ، ويحسب لها حسابها فى سير الزمان وتشكل الحياة فى كل زمان ومكان[1] .

---

(١) تم بحمد الله تأليف جماعة من المسلمين الباحثين لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى وفق هذا المنهج وقد أخذت هذه الجماعة فى عملها فعلا . وستظهر أول حلقة من نشاطها بعد أشهر معدودة إن شاء الله